العرب
الأربعاء 2020/09/09
السنة 43 العدد 11815



# مصر تعيد صياغة علاقتها بالسودان عبر سياسة المساعدات

## تغيير الصورة الذهنية خطوة تمكن القاهرة من تطوير روابطها مع الخرطوم

سعت دوائر صنع القرار في مصر إلى توظيف الكارثة التي حلت بالسودان بسبب الفيضانات التي غمرت مناطق شاسعة من أراضيه، عبر تحريك دبلوماسية المساعدات في مسعى يرمي إلى ملامسة مشاعر الناس وقياس انعكاسات ذلك على النخبة السياسية، بهدف بناء جسور تعاون جديدة مع الخرطوم تؤسس لعلاقات مستقرة ومستدامة بين البلدين، وتطوي كل اللبس الحاصل في عدة ملفات إقليمية.

عندما تتحول الأزمات إلى فرصة للتقارب بين الدول

محمد أبوالفضل
كاتب مصري

القاهرة – تتسابق دول عديدة لمساعدة السودان في كارثة السيول والفيضانات التي حلت بعدد من الولايات وخلفت دمارا في منازل مواطنين بسطاء. ومع التقدير الإنساني للجهد الذي تقوم به الدول، لكن ذلك لا يخلو من أغراض تفيد في تعزيز العلاقات السياسية.

وقد زاد هذا النوع من التوجهات في التفاعلات الإقليمية والدولية مع انتشار وباء فايروس كورونا المستجد، وحرصت الكثير من الدول على مد يد العون من باب التكاتف والتلاحم وأشياء أخرى.

ويمكن قياس حجم وسرعة المساعدات بدرجة التقارب السياسي، والأهداف التي تنطوي عليها، فكلما كانت العلاقات المشتركة جيدة ومنسجمة زادت المساعدات، وكلما تعاظمت الأهداف اصطحبت تعاطفا إنسانيا ظهر في شكل سخاء مصحوب بدعاية إعلامية تبرزه، وهناك من يحاولون تضخيم الأمر لتوصيل رسائل معينة.

> النتيجة التي ستخرج بها الخرطوم من هذه المحنة يمكن أن تعزز علاقاتها مع بعض الدول

وربما يكون السودان في وضع بائس لا يخوّل له الفرز السياسي الدقيق في هذه اللحظات الحرجة، حيث أطلقت بعثته الدائمة لدى الأمم المتحدة في جنيف الثلاثاء الماضي نداء عاجلا للمنظمات الدولية لإغاثة المتضررين من السيول والفيضانات في البلاد.

غير أن النتيجة التي ستخرج بها الخرطوم من هذه المحنة يمكن أن تعزز علاقاتها مع بعض الدول، ولاسيما في محيطها العربي والإقليمي، لأن الكارثة متعاظمة، وسوف تترك بصماتها على قطاع كبير من المواطنين.

وفعلّت مصر، مثل دول كثيرة، من آلية المساعدات الإنسانية مؤخرا مع السودان وغيره، ووجدت فيها وسيلة مناسبة لتطوير العلاقات، على اختلاف أشكالها، وتعويض الكسل والإهمال السياسي، وسوء الفهم الذي طغى فترة طويلة على تصوراتها حيال دول أفريقية.

### دبلوماسية المساعدات

تحمل دبلوماسية المساعدات مزايا عديدة تجعلها أكثر تأثيرا من نظيرتها العادية، لأن الأولى تخاطب المواطنين وتداعياتها صريحة ومباشرة على شريحة واسعة منهم، وأي انطباعات إيجابية تتكون لديهم سوف تحمل مردودات على مستوى النخبة، بينما الثانية، ليس بالضرورة أن تؤدي إلى انعكاسات على هؤلاء وتنحصر غالبا في القمة.

ويكمن أحد التعقيدات الشائكة بين القاهرة والخرطوم في جزئية المواطنين، فإذا كانت السلطة الانتقالية الحاكمة في السودان تملك رصيدا جيدا من العلاقات مع مصر فهي تبدو على المستوى الشعبي أقل من ذلك بكثير، وتخضخ لضغوط متفاوتة.

ونجح نظام الرئيس السابق عمر البشير في توسيع الهوة السياسية مع القاهرة، وقامت وسائل الإعلام في عهده بعملية تجريف متعمدة، أوجدت حيزا كبيرا من التشويش، وجعلت كل خطوة سياسية تقوم بها القاهرة نحو الخرطوم محل شكوك وهواجس.

وظهرت على الصفحات الخاصة للكثير من المهتمين بشأن العلاقات مع السودان في القاهرة دعوات حثيثة إلى استثمار فرصة السيول والفيضانات في إعادة صياغة صورة المصري عموما في الذهنية السودانية، حيث تعرضت لتآكل السنوات الماضية، حمل انعكاسات سلبية على حزمة من التوجهات السياسية، أضرت نتائجها بالأمن القومي.

ولدى فئة كبيرة من السودانيين انطباعات ترفض أي تدخل مصري في شؤونهم، لأنه ينطوي في ذاكرتهم على مكونات أمنية غامضة، وهي الصيغة التي اعتادت القاهرة على مدار فترة حكم البشير على التعامل بها مع الخرطوم، التي انغمست في أزمات معها بسبب احتضانها لجماعات إرهابية، وتورطها في عمليات إجرامية داخل مصر.

وطويت الكثير من هذه الصفحات القاتمة بعد الثورة على البشير، ولم تطو كل الرواسب السياسية التي خلفتها، وأثرت على رغبة القاهرة في بناء روابط تنطلق من مساحة كبيرة من القواسم المشتركة، لأن هناك قوى وأحزابا تستنفر همم الشعب السوداني.

وكلما لاحت في الأفق رغبة رسمية في تطوير العلاقات، أو هبت نسمات هواء من القاهرة باتجاه فتح صفحة تتجاوز ميراث ماض بغيض، ظهرت أعراض للإضرار بمصالح مصر، ففي أزمة سد النهضة اتخذ سودان البشير موقفا مؤيدا لإثيوبيا، وهو يحمل في جزء منه ضغينة للقاهرة.

وعدلت الخرطوم موقفها أخيرا، انطلاقا من معطيات تتعلق بحسابات المكاسب والخسائر الخاصة بها، وليس انحيازا للقاهرة، التي وجدت الأخيرة متهمة بالضغط على السلطة الانتقالية.

وتيقنت السلطات السودانية أن هذه الورقة سوف تظل تلاحقها كعقبة تقف حائلا أمام ضبط العلاقات بين البلدين، ووجدت في التركيز على ملف المساعدات الإنسانية بابا يمكن أن تفتح به الكثير من المتاريس التي تراكمت في البلاد طيلة ثلاثة عقود من حكم البشير.

### منعطف مهم

لا توجد أرقام محددة حول حجم المساعدات التي قدمتها مصر في أزمتي كورونا والسيول حتى الآن، لكن في كل يوم يتم الإعلان عن طائرات تتجه من القاهرة إلى الخرطوم تحمل مساعدات مختلفة وكميات ليست قليلة من المؤن الضرورية، مع رغبة ظاهرة في تخفيف الأعباء عن المواطنين في جنوب الوادي.

وهذا يعني أن هناك استعدادا جادا من طرف مصر، يتخطى دبلوماسية المساعدات، بعدم ترك السودان يعاني بمفرده في خضم ما يعانيه من مشاكل اقتصادية وانقسامات بين الأطياف السياسية، ومن الضروري أن تصل المعونات إلى المواطنين ويشعرون بالتكاتف المصري، فتكفي الصور التي تتناقلها وسائل الإعلام لبيوت تنهار وأخرى تغمرها بمن فيها السيول للتعرف على عمق المأساة.

ويسد الدخول المصري من باب الفيضانات التي غمرت أجزاء واسعة من السودان خلال الأيام الأخيرة اتهامات أطلقت عشوائيا أو على استحياء، وبدأت تتوسع، بشأن أن مصر تعمدت إغراق السودان جرّاء فتح بوابات السد العالي الذي يقع في جنوب مصر.

> السودان عدل موقفه بناء على حسابات المكاسب والخسائر الخاصة به وليس انحيازا للقاهرة

وهي قضية مقصود بها إبعاد شبح اللوم على إثيوبيا التي ملأت منفردة المرحلة الأولى من سد النهضة، ووضعه على عاتق مصر، لخلق أرضية توتر والقيام بالأخذ والرد معها، وقطع الطريق عليها لمد الخرطوم بمساعدات إضافية، باتت تحتل أولوية في التحركات المصرية، تمهيدا لرفض الحديث مقدما عن الاتجاه نحو التعاون في عملية بناء سدود تقي البلاد شرور السيول مرة أخرى.

وتعتزم الخرطوم بناء عدد من السدود على مجرى نهر النيل، ووضعت دراسات جدوى متباينة حول هذه المسألة منذ فترة، وبعد التعقيدات التي دخلها ملف سد النهضة منذ سنوات تمهل السودان في التنفيذ، فضلا عن أسباب تخص التمويل.

ومن المرجح أن تفجر الفيضانات هذه القضية، ويتم طرحها لاحقا لحماية السودان، وهو ما يزيد معاناة مصر، فإذا كانت تشكو من تأثيرات سد النهضة، وتجد صعوبة في التفاهم مع إثيوبيا على ضوابط الملء والتشغيل، ففتح الملف في الخرطوم يمكن أن يضاعف المعاناة، ما لم تكن العلاقات وثيقة مع السودان.

وتريد القاهرة أن يكون بناء السدود بالاتفاق معها، لتحاشي وقوع أضرار بها، وأعلنت تأييدها لسد النهضة كمشروع تنموي لا يؤثر على حصتها من مياه نهر النيل التاريخية، والموقف ذاته مع السودان، غير أن الاستفادة من التجربة الإثيوبية تفرض تقديم تضحيات للخرطوم لبناء مشروعات وفقا لقاعدة لا ضرر ولا ضرار.

وفي حال نجحت القاهرة في تغيير صورتها الذهنية لدى السودانيين، فمن الممكن أن تشهد علاقاتها مع الخرطوم تطورا كبيرا، أما إذا بقيت أثيرة للعقد السابقة فلن تجني ثمارا من وراء المساعدات التي قدمتها أو تعتزم تقديمها.

وتبدو نقطة البدء أو الإصلاح، هي أن يلمس السودانيون وجود تغير حقيقي في توجهات القاهرة، ما يستلزم جهدا لمواجهة الدعاية المضادة، فمهما اتسع نطاق المعونات سوف يبقى تأثيرها محدودا، طالما بقي نشاط من يعملون ضد المصالح المصرية، ووجدوا ثغرات عملية ينفذون منها.

# مواقع أثرية في السودان مهددة بالدمار بسبب الفيضانات

الخرطوم – تواجه مواقع أثرية في السودان تهديدا غير مسبوق بسبب ارتفاع مستوى مياه الفيضانات التي تجتاح البلاد منذ أيام، وسط تحذيرات من قبل علماء ومسؤولين من التهاون في معالجة هذه المشكلة قبل أن تتعرض للتدمير.

ولطالما نبه المختصون من تأثير التغيّرات المناخية، حيث إن ارتفاع حرارة الأرض بأكثر من درجة ونصف الدرجة سيؤدي إلى اضطراب لم يسبق له مثيل في الأنظمة البيئية منذ ظهور أولى الحضارات البشرية.

وتبدو مخاوف المسؤولين السودانيين مفهومة خاصة وأن هذه الكارثة قد تزيد من تعقيد وضعية البلاد، فقد قال حاتم النور مدير الهيئة العامة للآثار والمتاحف إن "الفيضانات العارمة التي يشهدها السودان حاليا تهدد موقعين يضمان أهرامات مروي ونوري الملكية والموقعان من أهم المواقع الأثرية في البلاد".

وأوضح أن الحمام الملكي في مروي، وهو حوض يمتلئ سنويا خلال موسم فيضان النيل، معرض للخطر بسبب مستويات المياه غير المسبوقة، مضيفا أن الفرق تعكف منذ أمس الاثنين على حماية الموقع من الغرق.

وتقع مدينة مروي الأثرية على الضفة الشرقية لنهر النيل على بعد نحو 200 كيلومتر شمال شرقي العاصمة الخرطوم. وكانت مروي عاصمة أسرة كوش التي حكمت في مطلع القرن السادس قبل الميلاد.

وقال النور إن المقابر الواقعة على عمق يتراوح بين 7 و10 أمتار أسفل أهرامات مدينة نوري، التي تبعد 350 كلم شمال الخرطوم تضررت بسبب زيادة منسوب المياه الجوفية.

شواهد تاريخية في خطر

وأعلن مدير الوحدة الأثرية الفرنسية في السودان مارك مايو لوكالة الصحافة الفرنسية الاثنين الماضي أنّ منطقة البجراوية الأثرية التي كانت في ما مضى عاصمة للمملكة المروية، مهدّدة بالفيضان بسبب ارتفاع منسوب مياه نهر النيل إلى مستوى قياسي.

وقال مايو إنّ "مفتّشي الآثار السودانية بنوا سدودا في المكان بواسطة أكياس معبّأة بالرمال واستخدموا المضخّات لسحب المياه ومنعها من إتلاف هذه التحفة الأثرية".

وكانت السلطات السودانية قد أعلنت السبت الماضي حالة الطوارئ في جميع أنحاء البلاد بسبب الفيضانات القياسية التي خلّفت ما يقرب من 102 قتيل ودمّرت أو ألحقت أضرارا بأكثر من 100 ألف منزل.

وبحسب خبير الآثار الفرنسي فإنّه لم يسبق أبدا للفيضانات أن بلغت مدينة البجراوية الملكية التي تبعد 500 متر عن مجرى نهر النيل. وإذ أكّد مايو أنّ الوضع حاليا تحت السيطرة، لكنه حذّر من أنّه إذا استمرّ ارتفاع منسوب النيل، فقد لا تعود الإجراءات المتّخذة كافية.

ولكن المخاوف لا تتعلق بآثار هذه المملكة غير أن العالم الفرنسي يؤكد أن مواقع أثرية أخرى مهدّدة بفعل الفيضانات على طول مجرى النيل.

ومنطقة البجراوية الأثرية تضمّ المقبرة حيث أهرامات مروي الشهيرة والمدينة الملكية لهذه الإمبراطورية المركزية التي حكمت من سنة 350 قبل الميلاد إلى سنة 350 ميلادية وكانت أراضيها تمتدّ على وادي النيل لمسافة 1500 كيلومتر، من جنوب الخرطوم وصولا إلى الحدود المصرية.

وزار وزير الثقافة والإعلام فيصل صالح المدينة في البجراوية للبحث عن سبل حماية هذا الموقع المدرج منذ 2003 على قائمة اليونيسكو للتراث العالمي.

> عاصمة مملكة مروي في البجراوية مدينة مدرجة منذ 2003 على قائمة اليونيسكو للتراث العالمي

وتضم أهرامات نوري مقبرة طهارقة، وهو الذي حكم ما أصبح الآن يضم أراضي مصر والسودان في القرن السابع قبل الميلاد. وقال حاتم النور إن هذه المقبرة أثر تاريخي لا يقدر بثمن. ومثلما هو الحال في مصر كان أفراد الأسر الملكية في السودان يدفنون في مقابر أسفل الأهرامات.

وقبل عام، أعاد علماء آثار فرنسيون ثلاث قطع أثرية اكتُشفت في شمال السودان إلى المتحف القومي في الخرطوم بعد ترميمها، من بينها جدارية تعود إلى 3500 عام. وكانت هذه القطع قد اكتُشفت في مواقع أثرية مختلفة خلال السنوات الأخيرة في السودان ورممها فريق من خبراء فرنسيين.